رؤية القرآن للعالم(خطة الخلق العامة)

الأهمية، التعريف والقضايا

(بروفيسور محمد الحسن بريمة إبراهيم)

(السودان– جامعة الجزيرة – معهد إسلام المعرفة)

يتكّون هذا البحث من ثلاثة محاور: المحور الأول؛ نتناول فيه بإيجاز مفهوم "رؤية العالم" من حيث أهميته وتعريفه وأهم مضامينه، والمحور الثاني؛ يتناول مفهوم "الفطرة" في القرآن الكريم للوقوف على حقيقة الإنسان المستخْلَف، كما يراها الباحث من خلال النصوص، المحور الثالث؛ رؤية القرآن للعالم(خطة الخلق العامة).

1– **مفهوم رؤية العالم:** الأهمية، التعريف والقضايا

هذا الجزء يحتوي على تلخيص لأهم القضايا التي تتعلق بمفهوم "رؤية العالم" في الأدبيات الغربية حيث نشأ هذا المفهوم وتطور وتبلور كأحد أهم المفاهيم المعرفية ذات الخصوبة المنهاجية، وتم توظيفه في كافة الحقول المعرفية المعروفة بما في ذلك الحقل الديني المسيحي، ولا يزال يزداد في الأهمية وفي استيراده وتوظيفه في بيئات حضارية مختلفة منها الإسلام[1]. وقد رأيت أن أستعين بمقتطفات من كتابات بعض علماء المسلمين ممن كان لهم اهتمام بالمفهوم للتدليل على الحاجة إلى توظيفه في الإطار المعرفي الإسلامي، وأهمية ذلك. وانحصرت هذه المقتطفات في القسم (1.1) فقط.

[1] - أنظر في هذا الخصوص المراجع الآتية: World Views: From Fragmentation to Integration, by Aerts, D., Apostel, L., (Internet edition- 2007). Worldview: The History of a Concept, Naugle,D.(2002),Wm. B. Eerdmans Publishing Co., Worldview: History, Theology, Implications, by David K. Naugle, (internet). David Naugle on Worldviews, by Dale Cannon, in " Tradition and Discovery: The Polanyi Society Periodical, (33:1).

كما يعتبر كتاب سيد قطب: "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" من أوائل الكتب التي آذنت باستيراد المفهوم إلى الحقل المعرفي الإسلامي.

1.1- لماذا نحتاج إلى رؤية العالم؟

يعلل علماء الغرب المهتمون بقضية "رؤية العالم" أهمية المفهوم والحاجة الملحّة إلى البحث فيه كمجال معرفي بأن أحد أكبر المشاكل التي تواجه مجتمعات اليوم هي الآثار الناجمة عن التغيير الشامل والمتسارع على النفس البشرية؛ فلا العقول الفردية ولا الثقافات الجمعية بقادرة على التعامل مع التعقيدات المتنامية في الحياة وأنماط التغيير التي لا يمكن التنبؤ بها. إن الضغوط والاحباطات وعدم اليقين في تزايد، والعقول مثقلة بالمعلومات، والعلم يتشظّى، والقيم تتآكل، ويتم التأكيد على التطورات السالبة وتهمل التطورات الإيجابية.

النتيجة هي خلق مناخ من العدمية والقلق واليأس، ولم يعد لحكمة وخبرات الماضي أثر على الحاضر، بينما لا نملك رؤية واضحة للمستقبل. لم يعد هناك شيّء يمكن أن يقود ويوجه أفعال إنسان اليوم.

العالم في حاجة إلى إطار مرجعي يربط كل شيءٍ بعضه ببعض بحيث يمكّننا من فهم المجتمع؛ فهم العالم ومكان الإنسان فيه، ويعيننا على اتخاذ القرارات الحاسمة التي تشكل مستقبلنا. هذا الإطار المرجعي يؤلف بين أنماط الحكمة التي أنتجتها العلوم والفلسفات والأديان، ولا يركز على جزئية محدودة من الحقيقة، بل لابد أن يعطينا الحقيقة كلها. ولابد أن يعيننا مثل هذا الإطار على فهم ومن ثمّ التعامل مع التعقيدات والتغيير. مثل هذا الإطار التصوري يمكن تسميته "رؤية العالم"(Worldview).

ويؤكد العلماء المسلمون من ذوي الاهتمام بالقضايا المعرفية الكلية للأمة الإسلامية ذات الأهمية لمفهوم رؤية العالم والبحث فيه في الإطار الإسلامي، فيقول الدكتور فتحي حسن ملكاوي:

"إن كل صور السلوك الإنساني يمكن في النهاية إرجاعها إلى رؤية العالم. وهي نتيجة كافية بحد ذاتها للكشف عن أهمية رؤية العالم في الحياة الفردية والاجتماعية والنشاط العلمي. وحسب هذه النتيجة نستطيع أن نؤكد الدور المركزي لرؤية العالم في أعمالنا، دون أن نقلل من أهمية العوامل الأخرى مثل نفسية الفرد والمحيط المادي والاجتماعي. ولكن من الناحية المعرفية فإن رؤية العالم أكثر أهمية بكثير من أي عناصر أخرى ذات علاقة بالسلوك الإنساني، لأنها الإطار الوحيد الذي يمارس العقل الإنساني فيه عمله لاكتساب المعرفة. ولذلك فإن رؤية العالم هي الأساس لأي نظرية معرفة وأي جهد لاكتسابها أو

توظيفها. إن وضوح الرؤية الكونية وتماسكها يولد طاقة وحماسا للحصول على المعرفة، وهمة عالية للإبداع والاكتشاف، وستكون نتائج بحث العلماء ومكتشفاتهم منسجمة مع معتقداتهم. ولذلك فإن تشوّه الرؤية الكونية لدي العلماء والطلبة في مجتمعاتنا(المجتمعات الإسلامية) لا يوفر لهم ذلك الحماس والهمة العالية، وأصبح البديل هو انتحال الأعذار وضياع الوقت وخور العزيمة، وفي أحسن الأحوال تكرار معارف الآخرين، دون استيعابها وتوظيفها.

ويتداخل مفهوم رؤية العالم في مختلف حقول المعرفة: في الدين، والفلسفة، والعلوم الاجتماعية والطبيعية، والفنون، والعلوم التطبيقية مثل الطب والهندسة...إلخ. وهي نفسها الأسئلة التي انشغلت بها الفلسفة منذ بداية عهد الإنسان بميادينها. وهي المحتوى الأساسي لفلسفة أي علم من العلوم الحديثة الذي يؤثر في تشكيل نظريات هذه العلوم ومناهج البحث فيها....

إن وظيفة رؤية العالم في الأساس هو تزويدنا بالإطار العام الذي نفهم به كل شيء ونفهم أنفسنا أيضا، وجعل فهمنا ضمن كل موحد، فكلما حاولنا أن نكوّن فهما معينا أو نصوغ نظرية لتفسير شيء ما، فإننا بالضرورة وبطبيعة عمل العقل نستخدم رؤيتنا للعالم. ولذلك فإن وظيفة رؤية العالم هي وظيفة معرفية. ودور المفكر المسلم المعاصر لا يقتصر على ضرورة استخدام رؤية العالم بوصفها وحدة تحليل للأفكار والمواقف والأشخاص والمؤسسات، ليعرف أين وكيف تختلف رؤيتنا للعالم عن الرؤى الأخرى، بل عليه أن يجعل الرؤية الإسلامية للعالم معروفة لأصحاب الرؤى الأخرى، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة".[2]

ويقول الأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان:

"ومع ذلك فإن كثيرا من الأمم أمكنهم أن يلحقوا، بل أن يتفوقوا ويبزّوا كثيرا من بلاد الغرب وإنجازاته وإبداعاته المادية، أما الشعوب الإسلامية فإنها- مع كل الانبهار والتقليد والمتابعة لأوربا والغرب في كل وجوه الحياة المدنية وغير المدنية والعسكرية والاقتصادية

[2]- " رؤية العالم والعلوم الاجتماعية"؛ د. فتحي حسن ملكاوي؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

والسياسية- لم تنته إلا إلى محاكاة قاصرة شكلية، وإلا إلى مزيد من التخلف والقصور والمعاناة والمظالم، وإلا إلى اتساع الهوة بين عالمنا وعالمهم.

وبعد هذه القرون من محاولات التقليد والمحاكاة الفاشلة أصبح واضحا كوضوح الشمس أنه مهما توافرت الوسائل واشتدت المعاناة فإنه لن يتبدل الحال، ولن تستخدم الوسائل، ولن تستقيم الأمور ويعتدل الميزان، إذا لم تكن هناك رؤية كونية حضارية تعطي الإنسان المسلم معنى حقيقيا إيجابيا للوجود، وغاية وهدفا دافعا لهذا الوجود، تكون بمنزلة المحرك والدافع للفعل والعطاء والحركة الإعمارية الإصلاحية.

هنا أدركت أن إشكالية الرؤية التي تحدد الغايات وتوفر الدافع هي الأساس الأول والأكبر لكل فعل وحراك إنساني وحضاري، وما لم يكن هناك رؤية كونية حضارية إيجابية توفر الغاية والدافع، فلن تتحرك الأمة، ولن يتحرك الإنسان، ولن تفيد الآلات والأدوات والوسائل والتهديدات والإرشادات والنصائح، مهما كانت وفيرة، ومهما كانت جيدة وفعالة، مثلها في ذلك مثل آلة مفككة إلى قطع، فبالرغم من أن كل جزء منها غال وثمين، وفي حالة جيدة، نهتم به ونقدره، فإنه لن يؤدي مهمته، ولن يثمر إنتاجا، إذا لم يوضع في رؤية كيانه الكلّي القادر على الإنتاج والحركة.

بل لعل أبلغ من ذلك حال الألوف من حملة الشهادات العليا في منهجيات البحث العلمي، وفي علوم التربية، الذين مع سواهم من ألوف الجامعيين المتخصصين، لافتقادنا الرؤية والدافعية، لم تنفعنا آلياتهم ولا أدواتهم ولا فنياتهم شيئا لتحريك الأمة ودفعها إلى الفعل والحركة؛ لأن الفعل والحركة يرجعان إلى الرؤية والغاية والدافع الذي هو الجوهر والمحرك، فمن لا رؤية له ولا غاية ولا مقصد فإنه لن يتحرك مهما توافرت له المعلومات والوسائل والآليات، ولن يفيد منها، ولن يحسن استخدامها، مثله في ذلك مثل التاجر ورجل الأعمال حين تحدثه في محاضرة علمية قيّمة عن كشف أثري أو مخطوطة نادرة، ومثله في ذلك أكاديمي في علم الحشرات أو الأفلاك حين تحدثه عن فرص جديدة في عالم التجارة والأعمال؛ فكل واحد منهما لن يحركه إلا ما له فيه غاية وهدف.

وهنا وجدت أن عليّ أن أعطي موضوع الرؤية الكونية حقه من العناية والاهتمام، لعل ذلك يفيد في أن تستعيد الأمة دوافعها وغاياتها وحراكها الإسلامي الإعماري الحضاري

الخيّر، وفي أن تستعيد بذلك قيادتها وريادتها للحضارة الإنسانية، على ضوء رسالتها الحضارية الحياتية الخيرة المقدسة، لتستنقذ ذاتها، وتستنقذ الحضارة الإنسانية من ورائها". [3]

وقبلهم أكد الأستاذ الشهيد سيد قطب ذات الأهمية لمفهوم رؤية العالم، ومن ثم رؤية الإسلام للعالم، أو "خصائص التصور الإسلامي" بتعبيره هو، إذ يقول:

"تحديد خصائص التصور الإسلامي ومقوماته مسألة ضرورية لأسباب كثيرة:

ضرورية لأنه لابد للمسلم من تفسير شامل للوجود يتعامل على أساسه مع هذا الوجود. لابد من تفسير يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل معها، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق: حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية(وهذه تشتمل على حقيقة الكون وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان) وما بينها جميعا من تعامل وارتباط.

وضرورية لأنه لابد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان في هذا الوجود الكوني، وغاية وجوده الإنساني، فمن هذه المعرفة يتبين دور "الإنسان" في "الكون"، وحدود اختصاصاته كذلك، وحدود علاقته بخالقه وخالق هذا الكون جميعا.

وضرورية لأنه بناء على ذلك التفسير الشامل، وعلى معرفة حقيقة مركز الإنسان في الوجود الكوني وغاية وجوده الإنساني، يتحدد منهج حياته، ونوع النظام الذى يحقق هذا المنهج، فنوع النظام الذى يحكم الحياة الإنسانية رهين بذلك التفسير الشامل، ولابد من أن ينبثق منه انبثاقا ذاتيا وإلا كان نظاما مفتعلا، قريب الجذور، سريع الذبول، والفترة التي يقدر له فيها البقاء هي فترة شقاء "للإنسان"، كما أنها فترة صدام بين هذا النظام وبين الفطرة البشرية، وحاجات "الإنسان" الحقيقية! الأمر الذى ينطبق اليوم على جميع الأنظمة في الأرض كلها، بلا استثناء، وبخاصة في الأمم التي تسمى "متقدمة."

وضرورية لأن هذا الدين جاء لينشئ أمة ذات طابع خاص متميز متفرد، وهى في الوقت ذاته أمة جاءت لقيادة البشرية، وتحقيق منهج الله في الأرض، وإنقاذ البشرية مما كانت تعانيه من القيادات الضالة، والمناهج الضالة، والتصورات الضالة – وهو ما تعاني اليوم مثله مع اختلاف في الصور والأشكال. وإدراك المسلم لطبيعة التصور الإسلامي، وخصائصه ومقوماته، هو الذى يكفل له أن يكون عنصرا" صالحا" في بناء هذه الأمة، ذات

2- "الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني"؛ أ.د. عبد الحميد أبو سليمان؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي (1429/8/8هـ - 2008/8/9م).

الطابع الخاص المتفرد المتميز، وعنصراً قادراً على القيادة والإنقاذ، فالتصور الاعتقادي هو أداة التوجيه الكبرى، إلى جانب النظام الواقعي الذى ينبثق منه، ويقوم على أساسه، ويتناول النشاط الفردي كله، والنشاط الجماعي كله، في شتى حقول النشاط الإنساني."[4]

2.1- تعريفات مختلفة لرؤية العالم

1.2.1- تعريف فلسفي

رؤية العالم عبارة عن زمرة من التصنيفات(Categories) العقلية تنشأ من التجارب الحياتية العميقة، وتحدد بصورة أساسية الطريقة التي يفهم بها الإنسان ويحس ويستجيب بالفعل(Action) لما يرى أنه العالم المحيط به، وما يثيره من صنوف ألغاز الحياة.

2.2.1- تعريف ديني

رؤية العالم هي التزام، توجهات أساسية للقلب، يمكن التعبير عنها في شكل قصّة، أو في شكل افتراضات قبلية- افتراضات قد تكون صحيحة كليا، أو جزئيا، أو كاذبة تماماً، نحملها في الوعي، أو في اللاوعي، في اتساق، أو في غير اتساق- عما تتكوّن منه الحقيقة الجوهرية للواقع، وتؤسس للطريقة التي بها نحيا ونتحرك ونحقق ذاتنا.

يجب التأكيد على الآتي في هذا التعريف:

1/ رؤية العالم كالتزام(Commitment)؛ ويعني ذلك أنها تسكن في أعماق الإنسان، متجاوزة الأبعاد الفكرية واللغوية. إنها أمر يتعلق بالروح، وهي توجهات روحية أكثر منها عقلية.

2/ رؤية العالم كتوجهات قلبية؛ حيث يتضمن مفهوم القلب أبعاد الحكمة، العاطفة، الرغبة والإرادة، والأبعاد الروحية والفكرية.

رؤية العالم إذن مستقرها القلب باعتباره جوهر الإنسان. لذلك فإن رؤية العالم تعتبر في عداد القبليات المستقرّة في منطقة اللاوعي ولكنها توجّه العقل الواعي، فنحن نفكر من خلال رؤيتنا للعالم، وبسبب رؤيتنا للعالم، وليس حول رؤيتنا للعالم.

3/ رواية رؤية العالم في شكل قصّة، أو في شكل زمرة من الافتراضات القبلية، رغم أنها ليست بقصة أو افتراضات قبلية.

[4]- "خصائص التصور الإسلامي وضوابطه"؛ سيد قطب؛ نسخة بالإنترنت.

4/ افتراضات قد تكون صحيحة، كلياً أو جزئياً، أو قد تكون كاذبة كلها. هذا يعتمد على مقاربتها للحق الذي تقوم به الأمور في الواقع.

5/ افتراضات قبلية، نحملها بوعي أو بدون وعي، وقد تكون متسقة وقد لا تكون متسقة.

6/ الحقيقة الجوهرية للواقع، وذلك لأن رؤية العالم معنيّة في الأساس بالحقيقة الوجودية(Ontological)، أي الواقع على ما هو عليه.

3.2.1 – تعريف أكاديمي

رؤية العالم عبارة عن مجموعة مترابطة من المفاهيم والنظريات التي يجب أن تمكننا من بناء صورة كلية للعالم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نفسّر أكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا. وهكذا فإن رؤية العالم هي إطار مرجعي يمكن أن نضع فيه كل ما يواجهنا من خبرات متنوعة في الحياة.

يتبع هذا التعريف مجموعة من القضايا، هي:

1.3.2.1- بناء رؤية للعالم

تشتمل على محاولات لتطوير رؤى للعالم تأخذ في الاعتبار أكبر قدر من أوجه خبراتنا الحياتية. ورغم أن هذا البناء يتم عبر جسور اللغة التي تتسم بالمحدودية إلا أن مشروع البناء يستحق الجهد. يرتبط بناء الرؤى للعالم بالثقافة التي عبرها يتم تداول المعاني، وتنتقل أنماط السلوك من جيل إلى جيل، وحيث يتم إنتاج المشاكل الاجتماعية، والسياسية، وأنواع الفنون. أما المواد التي تبنى بها رؤى العالم فتأتي من خبراتنا الذاتية العميقة، ومن معاملاتنا العملية مع أشياء الحياة، وكذلك من تفسيرات التاريخ، والدين، والمعرفة العلمية عن عالمنا. كل هذه الأمور ترتبط بالضرورة بثقافة معينة ليست بجامدة بل هي في تغير مستمر. لذلك فإن رؤية العالم ليست صورة جامدة، أو نسخة كربونية من العالم، بل تحاول أن تلتقط أكبر قدر من سمات عالمنا.

2.3.2.1- خصائص رؤية العالم

أهم خصائص رؤية العالم هي "التناسق" و"الوفاء للتجربة". إن مبدأ التناسق يقتضي أن تكون رؤية العالم كل مترابط من المفاهيم والمسلمات والنظريات والاستعارات التي لا

يقصي بعضها بعضاً، بل يمكن التفكير فيها مجتمعة. سوف تكون رؤية العالم وفية للتجربة فقط عندما لا تناقض حقائق تجريبية معلومة. ولكن مع ذلك فإن رؤية العالم أكبر من مجموع الحقائق العلمية التي تأتي بها العلوم الفيزيائية والاجتماعية. لذلك فإن رؤية العالم قد تلهم مزيداً من التطور في العلم، وقد تنتقد بعض جوانبه. من هذه الزاوية تصبح رؤية العالم امتداداً وتواصلاً لما جاء إلينا من العلوم، أحياناً تتطابق معه، وأحياناً تقوم بالتعميم منه، وأحياناً تنقده وترفضه.

إن رؤية العالم لا تنسب إلى ناتج العلوم وحده، بل ينبغي أن تسمح لنا بتضمين عالم المعاني وعالم القيم بحيث نفهم أكبر قدر من سمات عالمنا. ولأن عملية التقويم تحتوي على قدر كبير من الذاتية، ومن ثم تلتصق بشخص بعينه حتى داخل الثقافة الواحدة، فإن من الصعوبة البالغة تحقيق رؤية عالم كونية شاملة وواحدة لكل الناس.

إن رؤية العالم يجب أن تتسع لتجاربنا الجمالية والأخلاقية، وكذلك لأفعالنا الحقيقية المتوقعة في هذا العالم، بما في ذلك الأفعال السياسية. وهذه الأخيرة تجعل من الأيديولوجيات مكونا في رؤية العالم.

3.1- المكونات السبعة لرؤية العالم

1.3.1- نموذج للعالم(A model of the world)

يجب أن تمكننا رؤية العالم من فهم كيف يعمل العالم وكيف بُني. "العالم" هنا تعني كل شيء موجود حولنا بما في ذلك العالم الفيزيائي، الأرض، الحياة، العقل، المجتمع والثقافة. الإنسان نفسه جزء مهم من العالم لذلك لابد أن تجيب رؤية العالم عن السؤال الأساس: من نحن؟

2.3.1- التفسير (Explanation)

لماذا العالم على ما هو عليه؟ من أين جاء هذا العالم؟ من أين جاء الجنس البشري؟

3.3.1- المستقبليات(Futurology)

إلى أين نحن ذاهبون؟ كيف نختار بين المسارات المستقبلية المختلفة بحيث نفضل ما يجب تفضيله؟

4.3.1- القيم(Values)

ما هو الخير والشر؟ يتضمن هذا المكون النظام الأخلاقي الذي يحدد لنا ما يجب وما لا يجب أن نفعله. يعطينا هذا المكون أيضاً زمرة من المقاصد التي تقود أفعالنا.

5.3.1- الفعل(Action)

إن معرفة الأهداف والمقاصد لا يعني معرفة كيفية الوصول إليها، لذلك لابد من الإجابة عن السؤال: كيف نفعل؟ يجب أن نعطي نظرية للفعل تعيننا على حل مشاكل عملية، وتنفيذ خطط أفعالنا.

6.3.1- العلم(Knowledge)

تعتمد الخطط على العلم والمعلومات والنظريات والنماذج التي تصف الظواهر التي تواجهنا. لذلك نحن في حاجة لمعرفة كيف نبني نماذج معرفية يمكن الاعتماد عليها، وهذا هو مكوّن كسب العلم في رؤية العالم. يجب الإجابة عن السؤال المتعلق بما هو حقيقي وما هو كاذب.

7.3.1- كُتل البناء(Building Blocks)

الرؤى للعالم لا تبدأ من لا شيء، بل لابد من كُتَلٍ تبدأ بها، وتتمثل في النظريات العلمية القائمة، النماذج، المفاهيم، القيم وغيرها من الموجهات المتوزعة بين التخصصات العلمية والأيديولوجيات.

4.1- اختبارات رؤية العالم

1.4.1- اختبار النسقية: هل رؤية العالم المعنية متسقة منطقياً؟

2.4.1- **اختبار الوسطية:** هل تقوم رؤية العالم المعنية على ميزان قسط بين التعقيد والتبسيط؟

3.4.1- **اختبار القوة التفسيرية ومدى الرؤية:** إلى أي مدى تحسن رؤية العالم تفسير الواقع؛ وما مدى كمال الأدلّة الداعمة لمجال رؤيتها؟

4.4.1- **اختبار التوافق:** إلى أي مدى تتوافق رؤية العالم المعنية مع حقائق الواقع المؤكدة؟

5.4.1- **اختبار الإثبات:** هل يمكن تأكيد، أو تكذيب الحقائق المركزية التي تدعيها رؤية العالم المعنية؟

6.4.1- **اختبار الواقعية:** هل تدعم رؤية العالم المعنية نتائج واقعية وعملية بحيث يمكن عيشها في الخارج؟

7.4.1- **الاختبار الوجودي:** هل تعالج رؤية العالم الاحتياجات الداخلية الحقيقية للبشر بحيث يمكن عيشها في الداخل الوجداني؟

8.4.1- **اختبار المنافسة:** هل تستطيع رؤية العالم المعنية المنافسة في سوق الأفكار؟

9.4.1- **اختبار التنبؤ:** هل تستطيع رؤية العالم المعنية التنبؤ بنجاح بالاكتشافات المستقبلية؟

2- الإنسان من خلال مفهوم الفطرة في القرآن الكريم

قول الله تعالى: **(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)(الروم: 30)**، يدل على أن

الدين الحق، بحقيقته التي توحّد باطن الإنسان، وأحكام شريعته التي توحد ظاهر حياته، معادل للفطرة(الخلقة) البشرية التي فطر(خلق) الله تعالى الناس عليها، في أصولها الكلية وتمظهراتها التفصيلية. إذن ما هي هذه الأصول الكلية للفطرة البشرية كما جاءت في القرآن الكريم؟ وما هي تمظهراتها التفصيلية بحيث يمثل مجموع كل ذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها، مصداقاً لقوله تعالى: **(قُلِ اللهُ خَلِقُ كُلِ شَيءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ)(16، الرعد)**؛ **(وَاللّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)(96، الصافات)**، ثم كيف يكون دين التوحيد الحق(قرآن، سنة)، وهو علم، معادلاً في حقيقته وأحكام شريعته لهذه الفطرة البشرية ذات الطبيعة الكونية؟ بالنظر الفاحص المتدبر في القرآن الكريم يمكننا استنباط الأصول الكلية الآتية للفطرة البشرية:

أولاً؛ ثنائية الخلق البشري من الطين والروح المغايرة للطين كما في قوله تعالى:

(وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون(28) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين(29))(الحجر)؛ **(إِذ قَالَ رَبُّكَ لِلملاَئكَةِ إِنِّي خَالِقُ بَشَراً مِن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ (72)(ص)**. وحقيقة الروح سكت عنها القرآن الكريم إذ هي من الأمر الإلهي: **(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)(85، الإسراء)**. ونلاحظ هنا أن الله تعالى لم يذكر في تكوين الإنسان سوى عنصرين، الصلصال الطيني والروح، مما يدل على أن "النفس" البشرية، ما دامت ليست هي الروح، لأنه تعالى سكت عن الأخيرة وبيّن طبيعة الأولى كما سوف يتضح أدناه، فهي من الصلصال الطيني، ويدخل بذلك الماء في تركيبها، ومن ثم تكون هي أصل الحياة في الإنسان، لأن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي، وهذا هو الأصل المشترك بين الإنسان والحيوان.

ثانياً؛ ثنائية في خصائص النفس البشرية من حيث إلهامها فجورها وتقواها: **(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجورَهَا وَتَقوَهَا (8) قَد أَفلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَد خَابَ مَن دَسَّاهَا (10))(الشمس)**. ملهمات الفجور في النفس تمثلت في صفات فطرية مثل **الشح**: **(وَأُحضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ)(128، النساء)**، **الهلع**: **(إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وإِذَا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعاً (21))(المعارج)**، **الضعف**: **(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً (28))(النساء)**، **العجلة**: **(خُلِقَ الإِنسَانُ مِن عَجَلٍ(37))(الأنبياء)**. وتتركب من هذه الخصائص الفطرية وتتفرع عنها صفات سالبة أخرى، تقوى أو تضعف أو تنعدم في

الشخص بحسب أحوال الناس، منها: البخل؛ الكبر؛ الحسد...إلخ. ونلاحظ أن ملهمات الفجور ترتبط ارتباطا وثيقا، وذات علاقة طردية، بشهوات زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، فهي تقوى وتطغى على النفس التي يتمكن منها حب تلك الشهوات(الهوى)، ويضعف سلطانها على النفس بحسب ذلك.

ملهمات التقوى موجودة بالقوة في النفس، ولكنها توجد بالفعل عن طريق المجاهدة والتزكية للنفس من ملهمات الفجور المذكورة أعلاه. ومن ملهمات التقوى: العلم، الرحمة، الصبر؛ العدل؛ الإحسان؛ الصدق؛ السخاء...إلخ. ونلاحظ أن ملهمات التقوى في النفس ذات علاقة عكسية بشهوات زينة الحياة الدنيا، فكلما ضعف حب النفس لتلك الشهوات(الهوى) كلما قوي تأثير ملهمات التقوى في النفس.

واضح من الآيات السابقة أن النفس غير الروح، ونستنتج أن الروح هي مستودع الصفات الإلهية، وهي التي تعطي الإنسان حظّه النسبي من هذه الصفات الإلهية، التي هي ملهمات التقوى(الإيمان، العلم، الرحمة، العدل، الإحسان، الصدق، البر، الكبرياء، الهيمنة، العزة، الجبرة، القهر، المغفرة...إلخ) ما جعله خلقا آخر يتميز عن باقي المخلوقات، واستحق بها التكريم وسجود الملائكة له. ولكن الله تعالى بيّن لنا ما يكفي عن النفس وتسويتها، وخصائصها ودورها في حياة الإنسان، وما هو مطلوب من الإنسان بشأنها. كذلك فإن الخطاب القرآني يوجه دائما إلى النفس باعتبارها مدار التكليف في الدنيا، والمستهدفة بالموت انتقالا منها، وبالجزاء في الدار الآخرة. ويبدو، والله تعالى أعلم، أن الروح هي مستودع ملهمات التقوى الأخلاقية الإلهية التي ذكرتها سابقا، وهي التي تُكسب وتُمد النفس بما يناسبها من تلك الصفات، والنفس من جانبها تتخلّق وتحدد الكيفية التي توظف بها تلك الصفات الإلهية بحسب أحوالها من فجور وتقوى، وهي تتقلب في ابتلاء زينة الحياة الدنيا(المال والبنون). لذلك فإن الإنسان الذي يكاد ينعدم فيه تأثير الروح بسبب كفره بالله تعالى يصبح كالأنعام، وقد صدّق ذلك القرآن في قوله تعالى: **(وَلَقَد ذَرَأنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِ وَالإِنسِ لَهُم قُلُوبٌ لاَّ يَفقَهُونَ بِها وَلَهُم أَعيُنٌ لاَّ يُبصِرُونَ بِهَا وَلَهُم آذانٌ لاَّ يَسمَعُونَ بِهَا أُوْلَئكَ كَالأَنعَامِ بَل هُم أَضَلُّ أُولئكَ هم الغَافِلُونَ)(179)(الأعراف)؛ (أَرءَيتَ مَنِ أتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيهِ وَكِيلاً (43) أَم تَحسَبُ أَنَّ أَكثَرَهُم يُسمَعُونَ أَوّ يُعقِلُونَ إِن هُمْ**

إلاَّ كَالأَنعَام بَل هُم أَضَلُّ سَبِيلاً)(44)(الفرقان)؛ (....وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأكُلُونَ كَمَا تَأكُلُ الأَنعَامُ وَالنَّارُ مَثوىً لَّهُم (12))(محمد).

ثالثاً؛ من أصول الفطرة الموجودة في الإنسان بالقوة القدرة على كسب العلم، وترتكز هذه القدرة على خصائص السمع والبصر والفؤاد: **(وَاللَّهُ أَخرَجَكُم مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لاَ تَعلَمُونَ شَيئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصَارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ (78)(النحل).**

رابعاً؛ زُيّن للناس حب اللذات والأفراح وكراهية الآلام والأحزان؛ لذلك لا يُرى الإنسان الفطري إلا وهو مجتهد في جلب مصالحه ودرء المفاسد عن نفسه؛ سواء في ذلك من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة. ولقد قضى الله تعالى في أصل الفطرة البشرية ألا طمأنينة ولا سعادة للإنسان إلا بذكره واتباع منهجه، فقال: **(وَمَن أَعرَضَ عَن ذِكرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحشُرُهُ يَومَ القِيَامَةِ أَعمَى (124))(طه)**، فعلمنا بذلك أن تعظيم ملذات الدنيا وأفراحها، مع الإعراض عن ذكر الله ومنهجه، لا يجلب للإنسان سعادة حقّة، ولا أمنا ولا طمأنينة، ومن ثم فلا حياة طيبة إلا باستقامة الفطرة على الصراط المستقيم، ولا تبديل لخلق الله.
خامساً؛ أودع الله تعالى في أصل الفطرة البشرية النزعة إلى الحرية والاستقلال، لذلك قال: **(وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِكُم فَمَن شَاءَ فَليُؤمِن وَمَن شَاءَ فَليَكفُر)(29))(الكهف)، وقال: (خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ(4))(النحل).**

سادساً؛ جعل الله تعالى في أصل الفطرة افتقار الإنسان إلى خالقه وعبوديته له اضطراراً مهما أعرض ونأى بجانبه، كما في قوله تعالى: **(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي البحَرِ ضَلَّ مَن تَدعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُم إِلَى البَرِ أَعرضتُم وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً)(67)(الإسراء)؛ وفي قوله تعالى: (وَمَا بِكُم مِن نِعمَة فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِضّا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيهِ تَجأَرُونَ (53))(النحل)؛ وقوله تعالى: (وَإِذ أَخَذَ رَبِكُم قَالُواْ بَلَى شَهِدنَا)(173)(لأعراف)**. لذلك يظل الإنسان شديد الارتباط بعالم الغيب، أيا كان نوع هذا الارتباط، وتظل حياته في عالم الشهادة شاهداً على هذا الارتباط الفطري بالغيب.

نخلص من أصول الفطرة البشرية المذكورة آنفاً إلى نتيجة نقررها الآن ونبررها فيما يأتي من صفحات إن شاء الله تعالى، وهي الآتي:

الظاهرة الاجتماعية، بجميع مظاهرها في الزمان والمكان، إنما هي التمظهرات التفصيلية لتفاعل كليات الفطرة البشرية المذكورة آنفًا مع كليات زينة الحياة الدنيا(المال، البنون).

إذن قول الله تعالى إن الدين القيّم(القرآن، السنة) هو هذه الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها يعني، في رأي الباحث، أنه يعادلها معرفياً ويستوعب تفاعلاتها الكونية في كل زمان ومكان، حيث يبيّن القرآن الكريم أصول الخلق في عالم الغيب والحكمة منه، ويفسّر "خطة الخلق العامة"[5] في عالم الشهادة وتجلياتها عبر التاريخ، ثم يبيّن مآلها وتأويلها رجعى إلى عالم الغيب.

بناءً على ما سبق يضع الوحي الكريم أصول العلم الذي يستبين به صراط الله المستقيم المبني على أصول التقوى في النفس اعتقاداً، وعلى أصول زينة الحياة الدنيا عملاً صالحاً، ولتستبين به كذلك سبيل المجرمين المبنية على أصول الفجور في النفس اعتقاداً، وعلى أصول زينة الحياة الدنيا سعياً في الأرض فساداً:

(قُل تَعَالَوا أَتلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم أَلاَّ تُشرِكُواْ بِهِ شَيئاً وَبِالوَالِدَينِ إِحسَاناً وَلاَ تَقتُلُواْ أَولاَدَكُم مِن إِملاَقٍ نَّحنُ نَرزُقُكُم وَإِيَّاهُم وَلاَ تَقرَبُواْ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقتُلُواْ النَّفسَ الَّتِي حَرَّم اللهُ إِلاَّ بِالحَقِ ذَلِكُم وصَّآكُم بِهِ لَعَكُم تَعقِلُونَ (151) وَلاَ تَقرَبُواْ مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ حَتَّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوفُواْ الكَيل وَالمِيزَانَ بِالقِسطِ لاَ نُكَلِفُ نَفسًا إِلاَّ وُسعَهَا وَإِذَا قُلتُم فَاعدِلُواْ وَلَو كَانَ ذَا قُربَى وَبِعَهدِ اللهِ أَوفُواْ ذَلِكُم وَصَّآكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ(152) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُستَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيله ذَلِكُم وَصَّآكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ)(153))(الأنعام). وقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَستَبِينَ سَبِيلُ المُجرِمِينَ (55))(الأنعام). كل ذلك حتى يحيى من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وما ربك بظلاّمٍ للعبيد.

[5] – أنظر مضمون هذا المصطلح في الجزء التالي من البحث.

سابعاً؛ نخلص مما سبق إلى أن الأصول المعرفية للظاهرة الاجتماعية ينبغي أن تستقى من الوحي الكريم(أبستمولوجيا الظاهرة الاجتماعية)، كما أن الأسباب الاجتماعية الناجمة عن تفاعل الفطرة البشرية مع زينة الحياة الدنيا، والمكتشفة والمؤكدة بواسطة البحث العلمي التجريبي(أنطولوجيا الظاهرة الاجتماعية) لا يمكن أن تتعارض مع سنن وأحكام الوحي المتعلقة بها، بل تؤدي إلى ثراء في الفهم البشري لكيفية عمل تلك السنن الاجتماعية الإلهية، ولحكمة التشريع الإسلامي وعلله ومقاصده. وهذا يعني أيضاً أن السنن الاجتماعية، كما القوانين الطبيعية، هي محدد منهجي في فهمنا للوحي ومراميه.

3- رؤية القرآن للعالم(خطة الخلق العامة)

تضمّن القسم الأول ثلاثة تعريفات لرؤية العالم: (فلسفي، ديني، علمي)، وسوف نأخذ، في صياغتنا لرؤية القرآن للعالم، بالتعريف العلمي وبمضمون التعريف الديني، وذلك لسببين:

السبب الأول؛ هو أن التعريف العلمي يسمح لنا بالتأسيس العلمي الموضوعي، قدر الإمكان، لرؤية القرآن للعالم، وذلك انطلاقا من القرآن الكريم الذي هو كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير، فهو علم مطلق من عند من خلق العالم بعلمه، وهذه ميزة لا تتوفر إلا لرؤية القرآن للعالم. لذلك نحن سوف نجتهد[6] في استنباط أهم مقومات رؤية القرآن للعالم بحيث تستوفي أكبر قدر ممكن من عناصر التعريف العلمي الذي عرّف رؤية العالم بأنها:

عبارة عن مجموعة مترابطة من المفاهيم والنظريات التي يجب أن تمكننا من بناء صورة كلية للعالم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نفسّر أكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا. وهكذا فإن رؤية العالم هي إطار مرجعي يمكن أن نضع فيه كل ما يواجهنا من خبرات متنوعة في الحياة.

[6]- مشروع رؤية الإسلام للعالم- كغيره من مشاريع رؤية العالم التي يجري العمل البحثي فيها، وتتم مقاربتها من تصورات فكرية مختلفة- يحتاج إلى مراكز علمية متخصصة، وإلى جهود علمية ضخمة مستدامة، تتضافر فيها قدرات علمية متخصصة في شتى ضروب العلم من كل أنحاء العالم، للإحاطة بكل الجوانب المعرفية الضرورية للرؤية، ولتدارك ما يستجد من تحديات الحياة التي لن تتوقف أبدا في هذه الدنيا.

السبب الثاني؛ هو أن مضمون التعريف الديني لرؤية العالم يتمحور حول "القلب"، والقلب له دور مركزي في رؤية القرآن للعالم إذ تتحول الرؤية القرآنية العلمية الموضوعية للعالم إلى رؤية ذاتية للحياة عند آحاد البشر، يستقر جوهرها الصلب(العقلي، الوجداني، الإرادي) في القلب(عقيدة) لتعبّر عن الخصائص الخلْقية والخُلُقية التي يتميز بها كل شخص عن غيره، ولتحكم من بعد ذلك مساره في أودية الابتلاءات المتجددة أبدا في الحياة الدنيا.

كذلك ورد أن أهم خصائص رؤية العالم هي "التناسق" و"الوفاء للتجربة". إن مبدأ التناسق يقتضي أن تكون رؤية العالم كل مترابط من المفاهيم والمسلمات والنظريات والاستعارات التي لا يقصي بعضها بعضاً، بل يمكن التفكير فيها مجتمعة. سوف تكون رؤية العالم وفيّة للتجربة فقط عندما لا تناقض حقائق تجريبية معلومة.

القرآن الكريم، كونه علم في كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير، ما فرّط فيه من شيء، يستوفي بالضرورة اللوازم العلمية أعلاه لرؤية العالم: **(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَو كَانَ مِن عِندِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختِلاَفاً كَثِيراً)(82))(النساء)**. ولأن من خصائص القرآن أنه كريم فهو يعطي، لمن تحقق بالمنهج المناسب لتدبر آياته، علما بلا حدود؛ ولأنه في كتاب مكنون فعلمه يتكشّف عبر الزمان إلى قيام الساعة ليستوعب ويصوّب التجربة البشرية ويهديها للتي هي أقوم، ولأنه بلسان عربي مبين فإن لغته العربية هي لغة علمية مفاهيمية منضبطة على مستوى الحرف لتوصل الحق الذي أراد الله تعالى إبلاغه للناس.[7]

إن ما سوف نفعله في هذا الفصل، إن شاء الله تعالى، هو أن نقوم بمقاربة أولية لرؤية القرآن للعالم تأسيسا على القرآن الكريم، بحيث تستوفي قدر الإمكان معايير رؤية العالم المذكورة أعلاه. ومنهج التدبر الذي سوف نتبعه في ذلك يتكّون جوهره من المنهج العلمي المعروف القائم على المقدمات الأولية، والتعميمات الاستقرائية، والاستنتاجات الاستنباطية، وهو منهج يستفيد من التفسير لكنه يتجاوزه إلى التحليل.

نستخدم مصطلح "خطة الخلق العامة" للدلالة على التدبير الإلهي الخاص بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض، ومقتضى هذا الاستخلاف من تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعا له، وتحميله، تكليفا، أمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها

[7] - أنظر كتاب محمد أبو القاسم حاج حمد: "منهجية القرآن المعرفية".

وأشفقن منها، وحملها هو، وما يترتب على هذا الحمل من مسؤولية وجزاء. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن **خطة الخلق العامة** هذه قبل أن تحكم حياة الإنسان في الأرض جرت وقائعها في الملأ الأعلى، وانتهت بإغواء إبليس لآدم عليه السلام مما أدى إلى خروجه وزوجه من الجنة ومعهم إبليس، وهبوطهم جميعا إلى الأرض بعضهم لبعض عدو. وليس هدفنا هنا سرد الوقائع التاريخية التي حدثت في عالم الغيب وأدت إلى هبوط الإنسان إلى الأرض، فقد فعلنا ذلك في بحث آخر، وإنما هدفنا هو التأسيس المعرفي **لخطة الخلق العامة** على الأرض بغرض توظيفها منهجيا كأداة معرفية لتفسير الظاهرة الاجتماعية عبر الزمان والمكان. وما يلي من صفحات عبارة عن بسط منهجي **لخطة الخلق العامة** هذه، وتبيان أهميتها المنهجية في دراسة الاجتماع الإنساني.

المبدأ الكلي الذي ترتكز عليه رؤية القرآن للعالم(خطة الخلق العامة) هو مبدأ التوحيد: **(قُل هُوَ اللهُ أَحَدُ (1) اللهُ الصَّمدُ (2) لَم يَلِد وَلَم يُولَد (3) وَلَم يَكُن لَّه كُفُواً أَحَد (4))(الإخلاص).** فالله تعالى ليس كمثله شيء، غني بذاته مفتقر إليه جميع خلقه، وهو خالق كل شيء، خالق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وأجل مسمى؛ وهو الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن؛ وإن من شيء إلا يسبح بحمده. وهو الذي أخبر أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي؛ وهو الذي قال يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده. وهو الذي أنشأ الإنسان من الأرض واستعمره فيها، وفيها يعيده ومنها يخرجه تارة أخرى؛ وهو الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط؛ وهو الذي أخبر الناس في كتبه التي جاء بها رسله أن كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وقد بين الله تعالى حقيقة الحياة الدنيا، ومآلات أمور الناس فيها وفي الآخرة، فقال: **(أعلَمُواْ أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُر بَينكُم وَتَكَاثُر فِي الأَمَوالِ وَالأَولادِ كَمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يُهِيجُ فَترَاهُ مُصفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الأَخِرَةِ عَذَابٌ شَديدٌ وَمَغفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضوَان وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيا إلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ)(20))(الحديد).**

هذه المآلات النهائية للاجتماع الإنساني يمكن تفصيلها في رؤية معرفية للظاهرة الاجتماعية (خطة الخلق العامة) على النحو الآتي:

المبدأ الكلي الذي تنطلق منه الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية، المعّبرة عن حقيقة الحياة البشرية على الأرض، هو أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته: **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)(الذاريات:56)**. وعبادة الله تعالى تعني العلم به، ثم القيام بأمره ونهيه في أرضه بمقتضى شرعه. وفي هذا الإطار فإننا نجمل الأصول النظرية المنبثقة من هذا المبدأ التوحيدي الكلي في الآتي:

أولاً؛ إن عبادة الله تعالى مسرحها الذي تدور فيه هو الأرض: **(وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)(البقرة:36)؛ (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)(الأعراف:25)؛**

ثانياً؛ إن هذه العبادة تتم في إطار تكريم الإنسان وتفضيله ومن ثم استخلافه في الأرض: **(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)(الإسراء:70)؛ (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)(البقرة:30)**. الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مالك أصيل مطلق التصرف والحرية فيما استخلف فيه، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا إرادة. فعقد الخلافة يقتضي أن يقوم المستخْلَف"الإنسان" بسياسة ما استخلف فيه"الأرض" وفق ما يحب ويرضى المستْخِلف"الله تعالى". والناس في مهمة الاستخلاف سواء، فخالقهم واحد، وأصلهم واحد، وإنما يتفاضلون بمقدار قيام كل منهم بحق الاستخلاف فيما استخلف فيه: **(يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِل لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتقَاكُم إِنَ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)(13)(الحجرات)؛ (يأَيُهَا النَّاسُ اتقُواْ رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَّفسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَهَا وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَقُواْ اللهَ الّذي تَسَآءَلونَ بِه وَالأَرحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيكُم رَقِيباً)(1))(النساء)؛**

ثالثاً؛ إن عقد الاستخلاف الذي تتم في إطاره العبادة يقوم على عمارة الأرض: **(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعمَرَكُمْ فِيهَا)(هود:61)؛**

رابعاً؛ إن هذه الخلافة تقوم على مبدأ الامتحان والابتلاء والمحاسبة على العمل: **(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(الملك:2)؛ (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبلُوَكُم أَيُكُم أَحسَنُ عَمَلاً**

(7))(**هود**). فالإنسان يمكنه أن يعمر الأرض وفق منهج الله فيعمل فيها صالحاً، أو وفق هوى نفسه فيفسد فيها؛

خامساً؛ إن مجال الابتلاء والفتنة يتمحور فيما أودع الله سبحانه وتعالى في الأرض من زينة: (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**)(**الكهف:7**)؛

سادساً؛ إن ما على الأرض من زينة إنما يقوم على أصلين جامعين هما: "**المال**"(موارد معدنية، وزراعية، وحيوانية، تتحول في مجموعها إلى نقود وسلع بسبب القيمة المضافة بفعل الإنسان)؛ و"**البنون**"(علاقة جنس بين رجل وامرأة تثمر أبناء، تؤدي إلى قيام أسرة ثم أسرة ممتدة...إلى شعوب وقبائل): (**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاة الدُّنْيَا**)(**الكهف:46**)؛

سابعاً؛ إن الابتلاء في "المال" و"البنين" إنما صار ممكناً بسبب تزيين ما أودع الله فيهما من شهوات للنفس البشرية: (**زُيِّنَ لِلنَّاس حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّة وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاة الدُّنْيَا**)(**آل عمران : 14**)؛

ثامناً؛ إن نتيجة هذا الامتحان في نعمتي **المال** و**البنين**، وما يترتب على تفاعلهما مع النفس البشرية من نعم تفصيلية أخرى ترجع إليهما، إما أن تكون شكراً أو كفراً على نعمة الله، والشكر هو المطلوب من عمل الإنسان. والشكر على النعمة هو جوهر عبادة الإنسان لله تعالى في الأرض، وهو ثمرة العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا: (**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِماَّ شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**)(**الإنسان:3**)؛ (**إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**)(**الزمر:7**)؛

تاسعاً؛ إن الإنسان إنما أصبح قادراً على الاختيار بين الكفر والشكر بسبب ما هيأه الله تعالى به من قدرة على اكتساب العلم وتوظيفه في الكون، كفراً أو شكراً، وبسبب ما أودع الله تعالى في النفس البشرية من ملهمات الفجور والتقوى: (**وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)(**النحل:78**)؛ (**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**)(**العلق:5**)؛ (**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10)**)(**الشمس:7-10**). ثم منح الله تعالى الإنسان الحرية وإرادة

الاختيار والمشيئة في الفعل بملهمات التقوى الموجبة(الإيمان، العلم، الصبر، السخاء، العدل، الإحسان، الأمانة، الصدق...إلخ) في زينة الحياة الدنيا فيكون شاكراً، أو بملهمات الفجور السالبة(الهلع، العجلة، الضعف، الشح، البخل، الكبر، الحسد...إلخ) فيكون كافراً. **(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)(الكهف:29)**؛

عاشراً؛ الشكر لله تعالى على نعمائه يقتضي توفر ثلاثة عناصر في الإنسان، هي: علم وإيمان وعمل صالح. أما العلم فهو **علم** بالمنعم(الله تعالى)؛ **علم** بالمُنعَم عليه(الإنسان)؛ و**علم** بالنعمة(المال، البنون)، والحكمة من خلقها، وكيف هي نعمة في حق المنعم عليه. وأما الإيمان فهو **إيمان** بالله تعالى، أسماء وصفات، يترتب عليه حال نفسي من الاطمئنان إلى رحمة الله، وإحساس بالمنة وتمني الخير للآخرين. وأما **العمل الصالح** فهو ذلك الذي يؤدي إلى استغلال النعم فيما يرضي المنعم، والطمع في المزيد من المنعم يحفزه قوله تعالى: **(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَكُم وَلَئِن كَفَرتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7))(إبراهيم)**. ولن يبلغ العمل تمام الصلاح حتى يتحقق له شرطان: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون وفق شرع الله.

المتتبع للمفاهيم المفتاحية الثلاثة (النفس، المال، البنون) في القرآن الكريم يجد أنها وردت أحياناً معبرة عن جملة المعنى الذي يحتويه الحقل الدلالي للمفهوم، وأحياناً ترد مفصلة هذا المعنى إلى عناصره الأساسية، كما في الآتي:

ورد مفهوم "النفس" في القرآن الكريم بمعنى كل الإنسان، في بعده المادي الحيوي وبعده المعنوي الروحي: **(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)(لقمان:34)**. ولكن مفهوم النفس ورد أيضاً بمعنى ذلك العنصر غير المحسوس الممتزج بالجسد المحسوس كما في قوله تعالى: **(اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مِنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(الزمر:42)**.

ورد مفهوم "البنين" في القرآن الكريم ليعبر أحياناً عن مجمل علاقة الابتلاء الكامنة فيه: **(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(الكهف:46)**، وهي علاقة (رجل– امرأة– أبناء– أحفاد). ولكنه ورد أيضاً بمعنى الأبناء، ذكورا وإناثا، مقابل الزوجة: **(وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ منْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ منْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةٍ)(النحل:72)**. وأخيراً يرد مفهوم البنين

بمعنى الذكور من الأبناء مقابل البنات: **(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)(الصافات:149).**

يرد كذلك مفهوم المال بذات الطريقة ولكن بتفاصيل أكثر لكثرة عناصره المكونة له، وكثرة تمظهرات هذه العناصر، منفردة ومتفاعلة، فمثلا يرد المفهوم معبراً عن كل معاني حقله الدلالي كما في قوله تعالى: **(المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنيَا....(46))(الكهف)**، ثم يرد المفهوم مفصلا إلى عناصره الأولية: **(زُينَ لِلَّناسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ الُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنعَامِ وَالحَرثِ ذَلِكَ مَتَعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسنُ المَئَابِ (14))(آل عمران).**

إذن المفاهيم القرآنية الثلاثة (النفس، المال، البنون) هي مفاهيم معرفية جامعة، والعناصر الكونية المعادلة لها هي أصل الظاهرة الاجتماعية من حيث العلة الظاهرة، إذ لا تحتاج لأكثر منها علة وجود، ولا تحتمل أدنى منها، كما يستبين أدناه. ولكن أين وجه الإحكام في هذا الابتلاء الإلهي للبشر على الأرض بحيث يضمن دخول جميع الناس فيه؟ إن وجه الإحكام يكمن في الثنائية التي خلق الله بها الإنسان: ثنائية الجسد والنفس، وثنائية النفس من حيث إلهامها فجورها وتقواها، فالثنائية الأولى أدت إلى ثنائية في الدوافع بعضها يختص به الجسد الطيني وهي الدوافع الحيوية، وبعضها تختص به النفس وهي الدوافع النفسية، أو الاجتماعية.

الدوافع الحيوية الأساسية هي الجوع الناجم عن عدم الأكل، والعطش الناجم عن عدم الشرب، والعري الناجم عن عدم اللبس، والإضحاء الناجم عن عدم السكن، والعنت الجنسي الناجم عن عدم الوقاع. هذه الدوافع الحيوية المرتبط إشباعها بعنصري "المال" و"البنين" هي دوافع ضرورية ولابد من الوفاء بمقتضياتها لحفظ أصل حياة الإنسان على الأرض، وهي التي تضمن دخول جميع الناس، في كل زمان ومكان، في فتنة المال والبنين. لذلك كانت "النفس" و"المال" و"البنون" من الأصول الكليّة المطلوب حفظها في مقاصد الشريعة الاسلامية.

الدوافع النفسية مثل الطمع، الهلع، الشح، البخل، الكبر، العجلة، الضعف، هي الدوافع الضرورية التي تضمن جريان الابتلاء في كل الناس، في كل زمان ومكان. وهي الآليات التي تضمن تدافع الناس لعمارة الأرض لتحصيل زينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم

من شهواتها. فإذا تفاعلت العناصر الكونية الثلاثة (النفس، المال، البنون)، المقابلة للمفاهيم المعرفية القرآنية، بمقتضى الضرورات الحيوية ابتداءً، نجم عن هذا التفاعل بروز عنصرين آخرين كانا موجودين من قبل بالقوة في هذه العناصر الثلاثة، وهما:

1- "العلم بظاهر من الحياة الدنيا"، وكان موجوداً من قبل بالقوة، من حيث قابلية الإنسان للتعلّم(السمع، البصر، الفؤاد)، ومن حيث إمكان العلم الثاوي في الخلق بمقتضى الحق في عالم الشهادة.
2- "الهوى" الذي تتحرك دواعيه الفطرية في "النفس" بعد أن تذوق لذة الشهوات التي أودعها الله تعالى في "المال" و"البنين".

لما كان "العلم بظاهر من الحياة الدنيا" يتولد عن التفاعل، بمقتضى الدوافع الحيوية والنفسية، بين العناصر الأولية الثلاثة الحاكمة للظاهرة الاجتماعية(النفس، المال، البنون) فإن دوره يظل وظيفيا بحتا حتى يأتي "علم الوحي" من السماء فيتوحدا، بمقتضى المنهجية التوحيدية، ليكوّنا معا "العلم التوحيدي"، الذي يكون له دوره العقدي كدليل إيمان بالله الواحد، بجانب دوره الوظيفي في صلاح حياة الناس ومعاشهم، أي ذلك العلم الذي يحقق الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الأرض، أي في زينة الحياة الدنيا.

"النفس" إما أن تتفاعل مع "المال" و"البنين" بمقتضى "العلم التوحيدي" وملهمات التقوى فيتحقق "الشكر" لله تعالى على نعمه، وإما أن يتم التفاعل بمقتضى "الهوى" وملهمات الفجور فيتحقق بذلك كفر النعمة. ومجمل هذا التفاعل هو المسؤول عن نشأة المجتمعات الإنسانية، وبروز جميع الظواهر الاجتماعية الناجمة عن التدافع البشري، في أي زمان ومكان.

لقد اقتضت حكمة الله تعالى خلق أول زوجين من ذكر وأنثى وهبوطهما إلى الأرض، وضرورة العنت الجنسي أدت إلى تغشّي الرجلُ المرأةَ، وما نجم عن هذه العلاقة من أبناء اقتضى تأسيس أسرة. ثم عزز قيام الأسرة ضرورات المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وما تقتضيه من تقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين أفراد الأسرة. ومن البديهي أن نتصور كيف أن الضرورات الحيوية هذه أدت محاولة إشباعها إلى أن تتسع دائرة الأسرة لتصبح أسرة ممتدة، ثم رهطاً وقبيلة، حتى إذا ضاقت رقعتهم الجغرافية على تدافعهم وأطماعهم انبثوا في فجاج الأرض رجالاً ونساءً، فكانت الشعوب والأمم والمجتمعات الحضرية والبدوية، وكان العمران.

هناك سؤال يطرح نفسه هنا يتعلق بكيف تكاثرت الأسرة الأولى، هل تزوج الإخوان الذكور شقيقاتهم؟ الإجابة هي أنه من حيث التكوين الحيوي والنفسي للإنسان فإن ذلك ممكن، والدليل على ذلك، أولا؛ تحريم القرآن والسنة للعلاقات الجنسية بين المحارم، وثانيا؛ ما نراه من انتشار للعلاقات الجنسية بين المحارم في هذا الزمان مما هو موثّق في الشبكة العنكبوتية. والعلة المانعة هي في الأساس علة شرعية حيث التحريم الإلهي الصريح لهذا النوع من العلاقات، فصارت بذلك محارم لها وازع نفسي تربوي عند أهل الأديان السماوية. ولذلك إن أخذنا بمبدأ أن التكاثر البشري بدأ بزوجين اثنين فقط فلا مناص من التسليم بأن الزواج بين الأشقاء كان مباحا في البدء، ثم حرم بعد ذلك حفظا لقدسية هذا النوع من العلاقة الرحمية بعد أن انتفت الحاجة إليه بسبب حدوث التكاثر العددي الذي أدى إلى التباعد الرحمي، والله تعالى أعلم.

إذن الوفاء بحق الضرورات الحيوية يضمن لنا قيام المجتمع، وتفاعل "النفس" بمقتضى "العلم التوحيدي" أو" الهوى" مع "المال" و"البنين" يضمن لنا قيام الابتلاء. فالنفس التي أُلهمت فجورها وتقواها وزُيّن لها حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، سرعان ما تذوق لذة تلك الشهوات التي بدورها تثير في النفس آليات الابتلاء، ونعني بها دوافع الفجور والتقوى. ونرجّح أن أول ما يثور من تلك الدوافع هو "الطمع"، حيث يطمع كل شخص في الحصول على المزيد من زينة الحياة الدنيا، ومن ثم يصبح الإقبال عليها لإشباع الشهوة لا للضرورة والحاجة. ولما كانت أطماع الناس أكثر مما هو مطموع فيه، في أي وقت ومكان، سرعان ما تبدأ الدوافع السالبة الأخرى تثور في النفس بسبب التدافع بين الناس لحيازة زينة الحياة الدنيا، والاستئثار بأكبر نصيب منها.

هكذا يبدأ التنازع والتصارع بين الناس بسبب التهافت على زينة الحياة الدنيا، فاحتاجوا إلى نظام اجتماعي يقوم بمقتضاه حاكم يسوس أمرهم، وينظم علاقاتهم، ويفض نزاعاتهم، ويجلب لهم مصالحهم، ويدرأ عنهم المفاسد التي تأتي من عند أنفسهم ومن عند غيرهم. واحتاج الحاكم إلى حكومة وشريعة ونظم ومؤسسات سياسية تعينه على أداء مسئولياته. واحتاج المجتمع إلى أعراف وتقاليد وعادات ومؤسسات اجتماعية واقتصادية تحفظ له تماسكه وتضمن له استمراريته. وهكذا يمكننا أن نتابع تطور المجتمعات وتعددها وتنوع

مظاهر الحياة فيها، وما يبدعه الإنسان من علم وتقنية يسخّر بها زينة الحياة الدنيا لإشباع شهواته من متاعها، وتعظيم حظوظه منها. إذن فإن أي ظاهرة من الظواهر الإنسانية جاءت مترتبة على نشوء المجتمعات وتطورها من خلال تدافع أفرادها فإن مردها الأخير تفسيرا، من حيث العلة الظاهرة، إلى العناصر الأولية للظاهرة الاجتماعية (النفس، المال، البنون)، وطبيعة التفاعل بينها كما أجملناه سابقاً.

إن حقيقة الامتحان والابتلاء الذي هو قدر الإنسان في هذه الأرض تتمثل في شكل أحكام شرعية جاءت بها الرسل من عند الله تعالى، طبيعتها "أفعل" و"لا تفعل"، وذات علاقة مباشرة وغير مباشرة باستخدام الناس لزينة الحياة الدنيا. ورغم أن حقيقة هذه التكاليف الشرعية تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد عن الناس في الدنيا والآخرة إلا أنها تتعارض في الغالب مع هوى النفس في تفاعلها مع زينة الحياة الدنيا. إن التزام الإنسان بتلك الأوامر والنواهي الربانية هو أساس العمل الصالح المثمر للشكر على النعمة الذي جعله الله تعالى ثمناً للانتفاع بها: **(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم وَلَئِن كَفرتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7))(إبراهيم)؛ (مَّا يَفعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُم إِن شَكَرتُم وآمَنتُم وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))(النساء).** ولكن ملهمات الفجور السالبة التي جعلها الله تعالى خصائص فطرية في النفس البشرية(الهلع، الضعف، العجلة، الكبر، الشح، البخل، الحسد...إلخ) هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر وينهى أمراً عسيراً على الإنسان تكرهه النفس، فتتمرد وتأبى زاعمة إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما استنكر قوم نبي الله شعيب: **(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)(هود:87).**

ويستخدم القرآن الكريم مفهومي "الحياة الدنيا" و"الدار الآخرة" لتلخيص مداخل البشر إلى الابتلاء الذي جعله الله حكمة لخلقهم، وجعل أصله ومجاله زينة الحياة الدنيا: **(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)(الأعلى: 16-17)؛ (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ)(الأنعام: 32)؛ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآْخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)(الشورى: 20).**

إن مجال الامتحان واحد، وإن مادته واحدة: "زينة الحياة الدنيا"؛ ولكن من قال: **(إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)(المؤمنون:37)**، أو قال: **(رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)(صّ:16)**، فقد بنى حياته على مقصد دنيوي أساس، ألا وهو "تعظيم متاع الحياة الدنيا": **(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)(الحديد:20)**.

أما من قال: **(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)(البقرة:201)**؛ أو قال: **(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)(غافر:39)**، فقد بنى حياته على مقصد توحيدي أساس، ألا وهو "تعظيم الإيمان" من خلال "تعظيم العمل الصالح" في زينة الحياة الدنيا، باعتبارها مزرعة الآخرة، طمعاً في "تعظيم متاع الدار الآخرة": **(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ)(الحديد:21)**؛ **(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)(القصص: 60-61)**.

لقد أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط في تدافعهم وتحصيلهم لحظوظهم من زينة الحياة الدنيا، وتبياناً لكل شيء حتى يحيى من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة. وما كان الرسول الخاتم، صلى الله عليه وسلم، بدعا من الرسل، فقد جاءت شريعته في مقاصدها الكلية داعية إلى أن يكون حفظ "الإيمان" بالله تعالى المقصد الكلي للمسلم الذي تتحدد بمقتضاه المقاصد الأخرى المحققة له، المتمثلة في حفظ أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية(النفس، المال، البنون، العلم التوحيدي). ونقصد بالظاهرة الاجتماعية التوحيدية مجتمع التوحيد الذي يدخل بجميع تمظهراته في السلم، وهو كليّة "**الدين**" المقصود حفظها في مقاصد الشريعة الإسلامية. وهكذا جاءت أمهات الكتاب مؤكدة حفظ "**الإيمان**" والعمل الصالح: **(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)(العصر)**؛ وحفظ مدخلات الإيمان من "**النفس**": **(وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ)(الإسراء:33)**؛ و"**البنين**": **(وَلا**

تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً * وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)(الأسراء، 31–32)؛ و"**المال**": **(وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِن أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُم تَعلَمُون)(188)(البقرة)**؛ و"**العلم**": **(وَلاَ تَقفُ مَا لَيسَ لَكَ بِه عِلمُ إِنَّ السَّمعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُوْلئِكَ كَانَ عَنهُ مَسئُولاً)(الإسراء:36)**.

إن العلاقة بين "**الإيمان**" من جهة وبين "**النفس**"، "**العلم**"، "**المال**" و"**البنون**" من جهة أخرى هي علاقة بين ناتج ومدخلاته الضرورية، حيث تتفاعل هذه الأخيرة لينتج عن هذا التفاعل "**التوحيد**" بوجهيه، العقدي(**الإيمان**) والعملي(**الشكر**). ولا يمكن حفظ "**الإيمان**" إلا بحفظ هذه المدخلات الضرورية، كما لا يمكن حفظ مجتمع التوحيد(**الدين**) على الدوام إلا بحفظ الإيمان ومدخلاته، وحفظ ميزان التفاعل بينها على الدوام، وهو معنى قوله تعالى: **(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُستَقِيماً فَاتَبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُم وَصَّآكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ)(الأنعام:153)**. لذلك يمكننا أن نفهم لماذا أصبحت المصالح التي تتأتى من هذه الأصول هي أصول المصالح الشرعية، وأن حفظ هذه الأصول الكلية هو الأصل الذي تتأسس عليه مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولن يتأتى فهم المعنى الجامع للحفظ لهذه الكليات إلا من خلال تحليل التفاعل الكلي بين المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية بمقتضى "العلم التوحيدي" أو "الهوى". وإذا كانت المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية جاءت منزلة على الأصول الكونية الكلية للظاهرة الاجتماعية فإن وسائل تحقيق تلك المقاصد من أحكام شرعية(عبادات، عادات، معاملات، جنايات) جاءت متوافقة مع التفاعل الكلي لمتغيرات (النفس، المال، البنون) بمقتضى "العلم التوحيدي" وما يتعلق به من أخلاق التقوى، أو بمقتضى "الهوى" وما يتعلق به من أخلاق الفجور. فكانت العبادات (صلاة، زكاة، صوم، حج) آليات لتزكية النفس من "الهوى" الذي تتعلق به ملهمات الفجور، وتمكيناً "للعلم التوحيدي" الذي تتعلق به ملهمات التقوى. وكانت العادات تبياناً لما هو أحسن في علاقة النفس بالمال والبنين من عادات المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح..إلخ. وكانت المعاملات تبياناً لما هو أصلح من علاقات بين الناس تحكم وتنظم تدافعهم في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا. وكانت الجنايات، حدوداً وتعازير، حياة لأولي الألباب من حيث قطعها الطريق على النفوس التي

ألجمها "الهوى" فأرادت أن تفسد في الأرض بعد إصلاحها، جناية في حق المعبود"الله تعالى"، أو في حق العباد. وكانت من قبل شهادة "لا إله إلا الله" إيذاناً بتوقيع عقد الاستخلاف، اختياراً دون إكراه، والتزاماً بالوفاء بمقتضياته من واجب الشكر للمستخلِف"الله تعالى" من قبل المستخْلَف"الإنسان" فيما استخلف فيه"الأرض". وعلى الجملة فإن الشريعة الربانية- بمعناها القرآني لا الاصطلاحي- التي هي شرعة(مقاصد)، ومنهاج (وسائل)، هي الميزان الذي يقيم الوزن بالقسط في التفاعل بين المتغيرات التي هي أصول الاجتماع الإنساني(الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم، الهوى، المال، البنون)، ولكن الإنسان هو المسؤول تكليفا عن إقامة هذا الميزان بالقسط أو إخساره.

إن خيار "الحياة الدنيا" وخيار "الدار الآخرة" يمثلان رؤى كونية متباينة في تفاعل النفس مع زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، الأول من منطلقات الهوى والكفر في النفس، والثاني من منطلقات العلم والإيمان المفضية إلى الشكر. ويقابل كلّا من هاتين الرؤيتين الكونيتين نظام معرفي ترتب في إطاره المشاهدات الحسية، وتختمر في بوتقته التجارب الشخصية مع العالم الخارجي لأولئك الذين يستبطنونه، فتتحدد بذلك الأسئلة العلمية التي تستحق الإثتثارة والبحث في مجال الطبيعة والمجتمع، ويتحدد تبعاً لذلك نوع الإجابة العلمية المقبولة لتلك الأسئلة، ومن ثم توضع السياسات المناسبة، العام منها والخاص.

إن جميع التحديات التي تواجه البشرية اليوم إنما تتم صياغتها كقضايا معرفية تتم دراستها وتحدد السياسات العالمية والقومية تجاهها من خلال النظام المعرفي الوضعي الدنيوي المنبثق تاريخيا من خيار "الحياة الدنيا"، أو بتعبير آخر من "رؤية العالم الدنيوية"، والذي نما وترعرع ثم توطّن في التجربة الحضارية الغربية المعاصرة، المهيمنة بطغيانها اليوم على جميع المجتمعات البشرية عبر مؤسسات الأمم المتحدة، وشركات ومؤسسات ومنظمات الدول الغربية والرأسمالية العالمية.

نختتم هذا الإطار النظري لأصول الاجتماع الإنساني في التصور القرآني بتلخيصه في الرسم البياني في الشكل أدناه، الذي يغني بوضوحه عن شرحه. تتجاوز رؤية العالم التي يلخصها هذا النظام الخصوصية الإسلامية إلى العالمية الإنسانية؛ والذاتية إلي الموضوعية العلمية، لأنها تمكّن من تأسيس علوم اجتماعية ذات قدرة تفسيرية لكل الظواهر الاجتماعية، سواء الناجمة عن التمظهرات التاريخية لنظام الاجتماع التوحيدي، أو تلك الناجمة عن

التجليات التاريخية لنظام الاجتماع الدنيوي. كذلك تمكّن من تأسيس علوم معيارية تتبني على تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا في إطار نظام الاجتماع التوحيدي، أو على تعظيم المتاع الدنيوي في إطار نظام الاجتماع الدنيوي.

رؤية القرآن للعالم

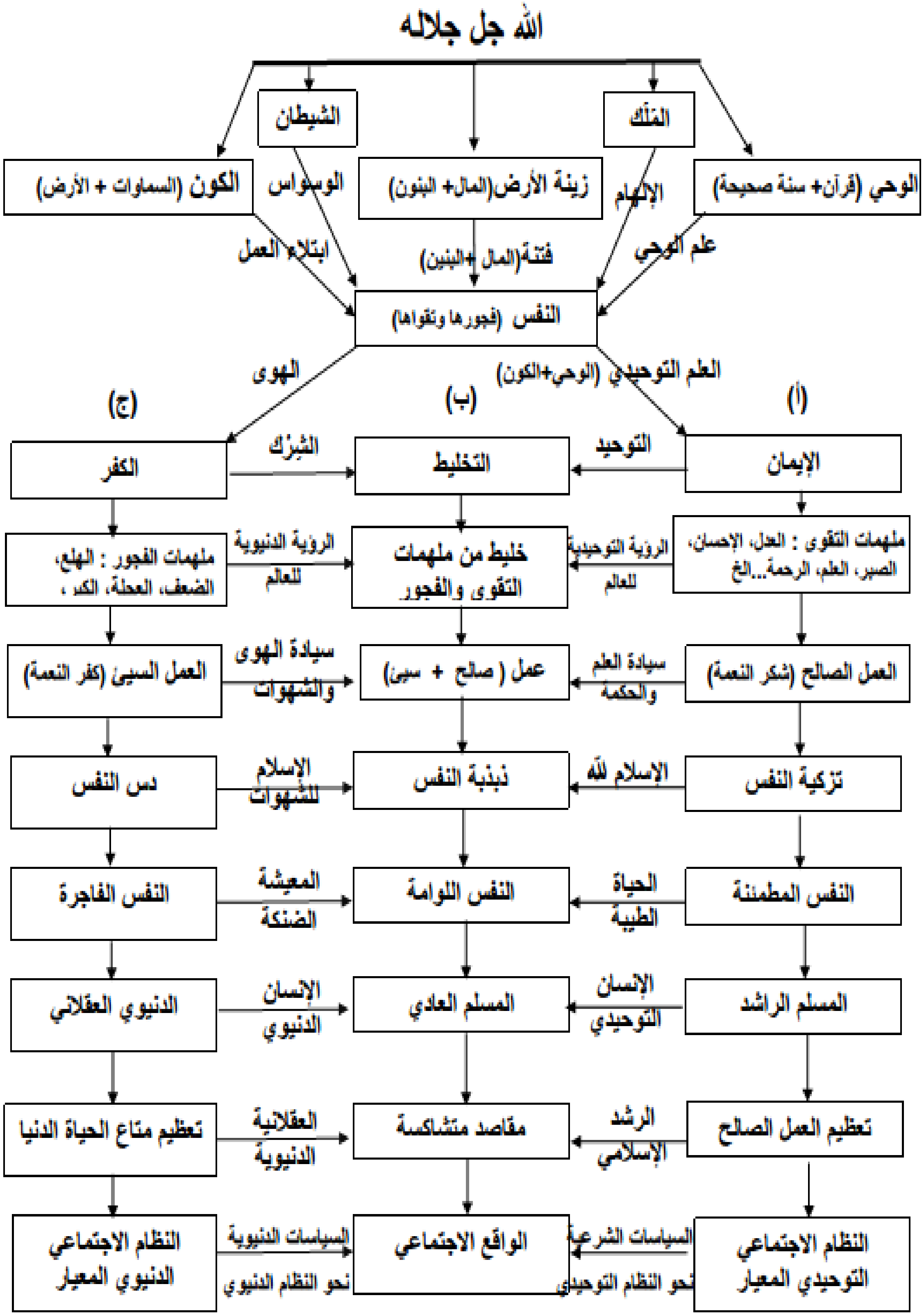

إن هذه الرؤية الشاملة لعالم الاجتماع الإنساني تتكوّن من رؤيتين معياريتين هما، "رؤية العالم التوحيدية" التي يمثلها عمود الصناديق **(أ)** في أقصى يمين الرسم، و"رؤية العالم الدنيوية" التي يمثلها عمود الصناديق **(ج)** في أقصى يسار الرسم؛ وما بينهما **(ب)** فضاء اجتماعي تتداخل وتتدافع فيه قوى التأثير من كلا الرؤيتين. إن جوهر الرؤية التوحيدية هو الدالة التوحيدية(دالة الإيمان) التي يمثل "**الإيمان**" متغيرها التابع، ومتغيرات "**النفس المطمئنة**"؛ "**العلم التوحيدي**"؛ "**المال**"؛ "**البنون**"؛ متغيراتها المستقلة؛ فهي دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية المسلم الراشد الذي توحدت مقاصده الحياتية مع مقاصد الشارع، ويوظف أكثر الوسائل المشروعة فعالية وبفاعلية في سبيل تحقيقها، فهو بذلك عقلاني أيضا.

الضرورات الحيوية(الجوع، العطش، العري، الإضحاء، العنت) تدفع المؤمن إلى الوفاء بمقتضياتها من زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، ولا يكون ذلك عادة إلا بعمل. والعلم، الذي توحّد فيه الدور العقدي والدور الوظيفي، يبّين آيات الله في المال والبنين، دليل إيمان بالله الواحد، ويبيّن النعمة فيهما، مصالح يطلبها المؤمن شكراً، والفتنة فيهما فيتجنبها رشداً. ثم يفصّل هذا العلم الأحكام الشرعية الضابطة للعمل ليعمل المؤمن بمقتضاها جلباً لمصالحه، في العاجل والآجل، ويحدد هذا العلم نوع العمل الراشد ووسائطه المؤسسية الأحكم، ووسائله الطبيعية الأفعل في تحقيق تلك المصالح. هذه جميعها حلقات من العلم الضروري لا تنفصم عراها دون أن تترك عجزاً كاملاً لدى المؤمن عن العمل الحضاري الراشد في زينة الحياة الدنيا. والإيمان المتجذّر في النفس التي تزكّت يدفع المؤمن الراشد لتحري قصد الشارع في المال والبنين فيقف عنده، استعصاماً من فتنة الشهوة فيهما. والعمل الصالح الذي تمّ، والمصلحة التي تحققت، شكراً لله، يعود أثرهما على الإيمان فيزداد المؤمن إيماناً مع إيمانه، وتزداد النعمة وتدوم بإذن الله.

إن جوهر الرؤية الدنيوية هو الدالة الدنيوية(دالة المتاع الدنيوي) التي يمثل "المتاع الدنيوي" متغيرها التابع، وتمثل "النفس الفاجرة"؛ "الهوى"؛ "المال"؛ "البنون" متغيراتها المستقلة؛ فهي أيضا دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية الإنسان

الدنيوي العقلاني الذي توحدت مقاصده في "تعظيم متاع الحياة الدنيا"، ويوظف أكثر الوسائل فعالية وبفاعلية في سبيل تحقيقها، ومن هنا جاءت الصفة عقلاني.
ضرب الله تعالى لنا أمثالا في القرآن الكريم قارن فيها بين أهم مخرجات نظام الاجتماع التوحيدي متمثلة في المسلم الراشد، وبين أهم مخرجات نظام الاجتماع الدنيوي متمثلة في الإنسان الدنيوي، فقال: **(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبداً مَّملُوكاً لاَّ يَقدِرُ عَلَى شَيءٍ وَمَن رَّزَقنَاهُ مِنَّا رِزقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنهُ سِراً وَجَهراً هَل يَستَوُونَ الحَمدُ للهِ بَل أَكثَرُهُم لاَ يَعلَمُونَ)(75)؛ (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَينِ أَحَدُهُمَا أَبكَمُ لاَ يَقدِرُ عَلَى شيءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَولاهُ أَينَمَا يُوَجِهّهُّ لاَ يَأتِ بِخَيرٍ هَل يَستَوِى هُوَ وَمَن يَأمُرُ بِالعَدلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ)(76)(النحل)؛ (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَل يَستَوِيَانِ مَثَلاً الحَمدُ للهِ بَل أَكثَرُهُم لاَ يَعلَمُونَ)(29)(الزمر).**

تعس عبد الدنيا، تعس عبد الدرهم والدينار، فكل شهوة من زينة الحياة الدنيا تنتصب حسناء معلنة عن نفسها وداعية إلاهه(هواه) إليها، ولا يزال يلهث وراء شهوات متشاكسة لا يستطيع قضاء وطره منهن جميعا، ولا يزال يصارع منافسيه عليهن حتى تتقطع به السبل في أودية الشهوات فيجد الله عنده فيوفيه حسابه، والله سريع الحساب. فهو عبد مملوك لشهوات الدنيا ولمن بيده تلك الشهوات من الناس، وكلهم شركاء متشاكسون لا يستطيع إرضاءهم جميعا، ولا يمكنه إرضاء أيا منهم دون إغضاب الباقين، فأي خير يرجى من مثل هذا!! وهل يستوي هذا ومن حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان فجعله من الراشدين؟ المسلم الراشد خرج عن داعية هواه فهو عبد لله اختيارا، كما هو عبده اضطرارا، فليس فيه شركاء متشاكسون، وهو أبدا على صراط مستقيم.

الإسلام الذي جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، هو التجلي التاريخي الأتم **لرؤية العالم التوحيدية**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم التوحيدي، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية. **الرأسمالية الغربية** المعاصرة، في رأي الباحث، هي التجلي التاريخي الأتم **للرؤية الدنيوية**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم

على العلم بظاهر من الحياة الدنيا، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية.

إن رؤية القرآن للعالم، لا سيما عالم الاجتماع الإنساني، أعلاه يمكن أن تمثل "**برنامج بحث علمي**"، بمعناه الاصطلاحي في فلسفة العلوم، لا يُستدعَى في كلياته لتفسير التمظهرات التاريخية للظاهرة الاجتماعية، لأنه يمثل القلب الصلب للبرنامج، ولكن تولّد منه نظريات وفرضيات ونماذج تفسيرية وتأويلية تناسب الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها في الزمان والمكان. ذلك لأننا أثبتنا، بفضل الله تعالى، وباتباع المنهج العلمي الصارم(الاستقراء، الاستنباط)، تدبرا في القرآن الكريم، أن الظواهر الاجتماعية، مهما بدا تنوع تمظهراتها في الزمان والمكان، ينتهي أمر تفسيرها إلى التفاعل، في ذلك الزمان والمكان، بين كل أو بعض المتغيرات الضرورية الكلية المنشئة للاجتماع الإنساني كما تبينها "**خطة الخلق العامة**"، وهي المتغيرات السبعة المنحصرة في: الإيمان؛ المتاع الدنيوي؛ النفس؛ العلم؛ الهوى؛ المال؛ البنون.

إنّ توليد وصياغة النماذج والنظريات والفرضيات التي يظن قدرتها على تفسير الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها ينبغي الرجوع فيها إلى "الوحي" وإلى "الواقع التاريخي" وإلى ما تراكم من "علوم الاجتماع الإنساني" و"مناهجها" للعلم بكيف تمظهرت وتفاعلت تلك المتغيرات في الزمان والمكان، في إطار "**خطة الخلق العامة**"، بحيث نتج عن ذلك التمظهر والتفاعل التاريخي بين هذه المتغيرات الظاهرة الاجتماعية محل الدراسة.

إنّ **خطة الخلق العامة،** على المستوى المعرفي، هي تجريد نظري كلي للتصور القرآني للاجتماع الإنساني، يبين الحقيقة المطلقة لمتغيراتها، وحقيقة التفاعل الدائم بينها، والسنن الإلهية التي تحكم ذلك التفاعل، ومآلاته المختلفة، في الدنيا والآخرة. وهي على الصعيد الوجودي تدبير إلهي مُحْكم خرج من مشكاة العلم الإلهي قضاء إلى مجال التحقق الفعلي في الزمان والمكان قدرا، وهي السبب في خلق السماوات والأرض: **(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبلُوَكُم أَيُّكُم أَحسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلتَ إِنَّكُم مَّبعُوثُونَ مِن بَعدِ المَوتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِن هَذَا إِلاَّ سِحرٌ مُّبِينٌ)(7)(هود).** وهي تتكشّف لحظة بلحظة منذ بداية خلق الكون إلى قيام الساعة، فليست هناك لحظة واحدة

يكون فيها الكون على حالته التي كان عليها قبلها. والله تعالى هو القائم عليها يدبّر أمرها، وهو سبحانه الضامن لتحققها قدرا كما قضاها علما، ويصدّق القرآن ذلك في آيات بينات: **(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنهُ مِن قُرءَانٍ وَلاَ تَعمَلُونَ مِن عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيكُم شُهُوداً إِذ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعزُبُ عَن رَّبِكَ مِن مِثقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكبَر إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)(61)(يونس)؛ (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيبِ لاَ يَعلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعلَمُ مَا فِي البَرِ وَالبَحرِ وَمَا تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرضِ وَلاَ رَطبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَبٍ مُّبِينٍ)(59)(الأنعام)؛ (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون)(2؛ الرعد)؛ (يَسئَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَّرضِ كُلَّ يَومٍ هُوَ فِي شَأنٍ)(29)(الرحمن)؛ (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَإِذَا قَضَى أَمراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)(117)(البقرة)؛ (أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرضِ وَالفُلكَ تَجرِي فِي البَحرِ بِأَمرِهِ وَيُمسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرضِ إِلاَّ بِإِذنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)(65)(الحج)؛ (اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لاَ تَأخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَومٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ مَن ذَا الَّذِي يَشفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذنِهِ يَعلَمُ مَا بَينَ أَيدِيهِم وَمَا خَلفَهُم وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِن عِلمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ وَلاَ يَؤُدُهُ حِفظُهُمَا وَهُوَ العَلِّي العَظِيمُ)(255)(البقرة)؛**

لذلك فإن البحث العلمي في التمظهرات التاريخية لخطة الخلق العامة سوف يثري فهمنا لحقيقتها النسبية المقيّدة بالزمان والمكان، وحقيقة التفاعلات بين متغيراتها المتجلية في الزمان والمكان، والكيفيات التي يتم بها ذلك التفاعل عبر التاريخ، وكيفية عمل آيات الله في الأنفس والآفاق بما يكيّف ذلك التفاعل، حتى يتبين لنا أنه الحق.

تم بحمد الله تعالى